

مع مدرسة الصوم ورمضان وصياغة الإنسان

أ. د. محمد سعيد حوى*

كما تنتظر الأرض الظمأى الماء؛ فتهتز وتربو، تنتظر القلوب هذا الشهر الكريم ﴿فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ
وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٌ﴾ [الحج: 5].

مدرسة الصوم

بل جامعة الصيام ورمضان

بل منهج حياة

مدرسة الأمة والجهاد والحياة والبناء والتزكية والتربية التقوى

والحياة الكاملة المتناسقة للأمة في حركة واحدة

لكسر عادة سلبية، وإحياء وبناء كل سلوك إيجابي؛ بل لبناء الإنسان، تطهيراً وتحريراً وتجديداً.

ها نحن نغدُ الخطفى نحو رمضان، ضيف كريم ننتظره بشوقٍ وحبٍ، ضيف هو الأحب إلى قلوبنا، طالما
تتلهف القلوب له.

كيف لا؛ وهو شهرٌ له أنواره ولآلئُه وإشراقاته وروحانياتُه وملائكته وضيأؤه.

شهرُ القرآن والمساجد والجماعات والصلوات، شهر التراويح والقيام والتهجد.

* أستاذ في الحديث النبوي الشريف، في جامعة مؤتة.

له العديد من المؤلفات، منها: منهج الإمام البخاري في الجرح والتعديل، ومقولات أبي داود النقدية في كتابه السنن، وصناعة الشباب، ومبادئ
الإسلام، والعديد من الأبحاث العملية المتخصصة، ومنها كتاب مستقبل الصراع على الأرض المقدسة.

هو من مواليد مدينة حماه، في سوريا، عام 1965.

نال درجة البكالوريوس والماجستير من الجامعة الأردنية، بدرجة امتياز، ثم الدكتوراه من جامعة بغداد، في العراق، ويتقدير ممتاز، عام 1996م.

حافظ لكتاب الله، وإمام وخطيب مسجد السيدة عائشة، في الأردن.

شهر الفجر والإحسان والبر والجود والإكرام.

شهر الضعفاء والأقوياء معاً، شهر الأغنياء والفقراء معاً.

شهر الأسرة والأرحام والتواصل الاجتماعي.

شهر الجهاد والصبر والإرادة، هو شهر النصر على النفس، والشهوة، والظلم، وفي كل ميادين الحياة؛ انتصاراً للحق.

شهر التوبة والتطهير، شهر البركات وزيادة الرزق والأجر.

شهر النفوس المطمئنة، شهر السعادة والأنس.

شهر الأمة، شهر الله، شهر الصالحين، شهر التقوى، شهر القرآن.

فكيف لا تتلهف له النفوس؟!؟

وهنا لطيفة:

آيات الصوم الخمس، وحروف رمضان خمسة، وأركان الإسلام خمسة، والصلوات خمس، ومفاتيح الغيب خمسة؟

هذا العدد له شأن وسر:

فالصوم يقوم على آيات خمس (إرادة، مراقبة، صبر، ضبط، يسر)؛ لتحقيق مقاصده وأهدافه كما سنرى.

وألفت النظر إلى أن صفات المتقين في سورة البقرة خمس.

وصفات المنافقين إن جمعت من نصوص الحديث خمس.

والمطلوب في مدرسة الصوم؛ تحقق بصفات المتقين، وتطهر من كل صفات المنافقين.

أتناول الحديث من خلال بعض القضايا:

1. وقفة مع مفاهيم العبادات.
2. الوقوف مع بعض الحكم والمقاصد والغايات والأهداف، من الصوم.
3. لماذا التقوى في رمضان، وكيف؟
4. الثمرات.
5. الواجبات.

تمهيد:

تفاوت اهتمامات المتحدثين والمتلقين في كل موضوع؛ فكيف إذا كان الحديث عن رمضان والصوم، وهو حديث موسمي متكرر؟!

وإذ تفاوت التوقعات عما سيقال؛ فسيجد المتحدث نفسه بين يدي آفاق واسعة جداً؛ فثمة من يرغب بالتذكير بالتطهر، وعنوانه التوبة ورد الحقوق وحفظ اللسان من اللغو وكل الآفات.

وثمة من يرغب بالتأكيد على حفظ الوقت وما يتصل به.

وآخرون يرون أن محور الحديث ينبغي أن يكون عن القرآن؛ تدبراً وتلاوةً وتعبداً، وتهجداً ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾ [القيامة: 16] ﴿كَتَبْنَا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكًا لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص: 29].

وثمة من يرى أن المحور الأعظم ينبغي أن يكون للمسجد، ومن خلاله يكون بيان المحاور الأخرى.

ليركز البعض على عمل القلب، من إخلاص وحب، وذكر وخشوع، وزهد وشكر، وتفكير.

ليرى آخرون أن قضية قيام الليل هو المنهج الأمثل الأميز، ونرى بعضاً يؤكدون على صحبة الصالحين، أو يطالبون بالتأكيد على التواصل الاجتماعي وصلة الرحم.

ليحدثنا آخرون عن ضرورة إيلاء قضايا الأمة مكانتها.

لنرى أن الإحسان يجمع ذلك كله، فمن هنا نجد كم هي القضايا التي يجب أن نتحدث عنها؟

القضية الأولى: وقفة مع مفاهيم العبادات

ومعنى العبادات الشاملة وموضع التكليف الرباني من ذلك

للأسف أن نجد أناساً حصروا العبادة في جزئيات وموسميات وشكليات وطقوسيات

ولو عدنا إلى القرآن لفقهنا الحقيقة: (ليعبدون)..

إذن كيف نحقق ذلك بما يملأ الوقت والأعمال والإنجاز والهدف والمشاعر والقوى والتفكير والعقل: ﴿قُلْ إِنَّ

صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: 162]

﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيُبْلِغَكُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الملك: 2]؛ فدخل في العبادات كل

عمل هو أحسن في ميزان الله؛ ليشمل كل شيء في حياتنا.

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: 115]؛ إذن إله يُعبد، ومنهج به العبادة،

ومكلف بهذا المنهج، وعمل بالامتثال له؛ لنصل إلى المساءلة والحساب الأعظم، ومن ثم الجزء الأعظم بميزان

العدل والفضل، ليكون الخلود الأعظم، وبلا خلود لا معنى للحياة.

فأين نحن من أولئك الذين يريدون أن يجعلوا الدين مقصوراً على جزئيات العلاقة مع الله المؤقتة، فلا علاقة للدين في الحياة عندهم.

لتشمل عبادات الأخلاق والمعاملات

وأثر العبادات

وفاعلية العبادات في الحياة والتفكير والتصورات.

فلنحظ في فقه العبادات لماذا تتكامل الأركان؟

تكامل الأركان:

ففيها القول والعمل، وفيها البدني والمالي، وفيها التركي والفعلي، وفيها ما يتكرر وما لا يتكرر، وفيها ما يرتبط بزمن وما لا يرتبط بزمن، وفيها ما لا يسقط أبداً، وما يسقط إلى بدل، وما يسقط إلى لا بدل، وفيها ما يُعلّق بشرط وبعضها لا يتعلّق بشرط إلا الشرط الخاص كدخول الوقت للصلاة.

القضية الثانية: الوقوف مع بعض الحكم والمقاصد الغاية والأهداف

وكلما أدركنا ذلك كان أدعى إلى التحقق والتحقيق

لذا قيل: "الهدف والمقصد يُرسم لك أو ترسمه لنفسك"

تدركه أو تغفل عنه.

العودة إلى الغايات القرآنية

إذا عدنا إلى آيات الصوم بيّنت هذه المقاصد:

فكان المقصد الأول ((لعلكم تتقون)) وختمت ((لعلهم يتقون))

فالتقوى أحاطت بنا من كل جانب ظاهراً وباطناً

تتقون ماذا؟ دعوة مفتوحة..

الوقاية من الخلود في النار بالتبيري من الشرك وتحقيق التوحيد، ثم من أن تمسنا النار بالتطهر والتحقق

ثم باتقاء التأخر عن المنزلة الأعلى بدوام الترقى

والصوم مفتاح أعظم

تقوى الآثام، تقوى آفات اللسان، تقوى التّقصير، معاصي الجوارح، تقوى الإساءة للآخرين، تقوى القيام

بحقوق الله، ثم ذوي الحقوق، ثم الأمة والمقدسات، تقوى القيام بحق القرآن وحق المساجد.

دعوة للارتقاء والنقاء والانتصار على النفس والشهوة

رسم طريق التقوى في القرآن وثمراته بشكل عجيب

وسنرى من خلال فهم الصوم كيف يكون أساساً في التقوى، وطريقاً إليها.

الحكمة الثانية والثالثة

﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 184] الخيرية والعلم

الخيرية أساس أخلاقي تعاملي، لا استعلائي، دافع لكل خير؛ ليستشعر المؤمن رسالته العظمى ومكانته الإنسانية في ميزان الله؛ ليقوم بحققها، لذا جاءت مشروطة، وعرفنا طريقها، والصوم من أعظم ما يساعد في ذلك؛ إذ هو شهر الإحسان والدعوة والعلم.

والعلم أساس بنائي لمسارات القيم والتصورات والعلاج والوقاية والإنجاز والقوة والحفظ والعزة والكرامة، فهو شهر علم ودعوة وقرآن وارتقاء.

الحكمة الرابعة

﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ﴾ [البقرة: 185]

ما معناها وأي عدة؟

لها معنى فقهي، ولكن نستأنس.

لنأخذ من ذلك معنى الإعداد، وإن كان أصل الموضوع عن إكمال العدة (من العدد)؛ ليلفت نظرنا إلى استكمال الإعداد في كل شيء، حيث تكون الهمة أثاراً عن المراقبة والإرادة، والصبر والضبط.

الحكمة الخامسة:

﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمُ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

سياق الآيات في تكبيرات العيد، ولكن لا شك تلفت نظرنا؛ لتكون حقيقة (الله أكبر) هي الحقيقة الأعظم في قلبنا وعقلنا، وحياتنا، ومواقفنا؛ فلا خوف ولا جبن، ولا ضعف ولا دنيا مؤثرة؛ بل جهاد ومجاهدة وصبر؛ ليكون ذلك من عظم مظاهر الهداية، ورمضان شهر الهداية، وفيه كان كتاب الهداية.

الحكمة السابعة:

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: 185].

وهذا من أرقى مقامات العبودية؛ فالعبادات كلها تقود إلى التقوى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 21].

والتقوى تقود إلى الشكر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123].

فنستشعر عظم نعم الله بما أحفنا به من ألطافه ورحماته، وما يكون في هذا الشهر من انتصار على النفس والذات والشهوة والعدو؛ فترتقي بقلوبنا في مراتب الشكر الذي يعني القيام بحق النعمة أداءً لحق المنعم.

الحكمة الثامنة:

الرشد ضد الجهالة والسفه

عندما تبلغ الأمة الرشد تحسن البناء والقوة بالحكمة والبصيرة والعلم في ظلال الإيمان

وإذا استعرضنا الرشد في كتاب الله نجده: صفة للأنبياء، كما في حق إبراهيم:

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ [الأنبياء: 51]

وكذا في حق غيره من الأنبياء

وتلقت سورة الحجرات نظرنا إلى قضية الرشد:

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ [الحجرات: 7].

حُبُّ أعظم، إيمانٌ أعظم، تطهر أعظم.

وهنا من أعظم الرشد: سلوك طريق العبودية والصلة بالله، وأجواء الصيام بكل ما فيها من تجليات تحقق

ذلك، ومن ثم كانت أسمى الأوقات للدعاء والانكسار والخضوع على طريق الرشد: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: 186].

إذن اغتنام هذه الأوقات بكثير من الدعاء والافتقار والانكسار والمناجاة لله، وحال الجوف في خواء وخالٍ من

ثقل الطعام، وفيه ضعف وفراغ؛ ينعكس على صفاء القلب، في أجواء ملائكية وقد صُفِّدَت الشياطين، وفتحت أبواب الرحمة والسماء.

الحكمة التاسعة:

أن رمضان محطات تقوية وتنقية وانعاش، وفيه يبني الإنسان السلوكيات الإيجابية، وينتصر على السلوكيات السلبية.

القضية الثالثة: لماذا التقوى في رمضان، وكيف؟

جعل الله القلب (المعنوي) هو محل الإيمان أو الكفر، ومحل الحب أو الكره، ومحل المشاعر والتفؤد والتوقد، ومحل اتخاذ كل قرار، سلباً أو إيجاباً، ومن ثم كان صلاحه صلاح كل شيء، وفساده فساد كل شيء، وتضافرت النصوص في ذلك:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 37].

﴿إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: 89].

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: 179].

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: 46].

وفصل ذلك الحديث الشريف: (إن في الجسد مضغة).

ولأنه كذلك جعل الله له مؤيدات، منها الفطرة؛ فجعل الفطرة صافية نقية في أصل وضعها، وأرسل الرُّسل، وأنزل الكتب، ووجهنا للأخذ بأسباب صلاحه؛ فكان لا بد من إمداده الدائم بكل خير، حتى يُحافظ على صلاحه، أو يصلح ما كان من أحواله، ويرتقي؛ ومن أعظم أسباب إمداده: الفكر والذكر والعبادات، ثم المذكرات التي تأتي في الحياة (مصائب وابتلاءات)، ثم المثبتات والعظات، ثم البيئات والصحبة والمرشدون، وكل ذلك من خلال المجاهدات؛ فإن سار في هذا الطريق؛ سار في طريق صلاحه ونوره.

والقلب ليس وحده في الميدان؛ فنرى أن القلب يقع بين جهتين، جهة تأمر بكل خير، وجهة تأمر بما هو سلبى.

أما الجهة التي تأمر بالخير؛ فالوحي، والعقل كما خلقه الله؛ ميزانا لمعرفة الحقائق كما هي.

وأما الجهة السلبية؛ فالنفس غير المزكاة، ومن ورائها الشيطان.

فيكون القلب هنا، إن لم يكن قد وصل إلى مراتب النور الأعلى، أو كان ما زال في طريق طلب النور؛ واقعا تحت

تأثير الجهتين؛ فيقع في صراع؛ أيستجيب لجهة الخير؟ أم يستجيب لجهة الشر؟

ومن ثم بمقدار صلاحه وإمداده بكل خير؛ يتخذ قراراً سليماً صحيحاً، وبمقدار مرضه أو ضعفه يتخذ قراراً

سلبياً.

ومن هنا أكدنا على احتياجه الدائم إلى المؤيّدات والإمدادات والمذكّرات؛ ليستطيع اتّخاذ القرار الصحيح، وكلّما اتخذ قراراً صحيحاً ازداد نوراً، وكلّما ازداد الإمداد الحق ازداد نوراً وقوّة وصحّة.

وفي ذلك فصلت سورة النور؛ إذ حدّثتنا عن هذا القلب النوراني ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ...﴾ [النور: 35]، ثم بيّنت مصادر إمداده ﴿فِي بُيُوتِ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 36-37].

وهكذا، كما أكّدت، كلما ازداد الإمداد الحق ازداد نوراً، واتخذ قرارات أصح، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَْتَ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ وَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2].

وهو إذ يزداد نوراً وإيماناً وقوّة بالإمداد الحق؛ يعكس هذا النور والمدد على النفس ذاتها؛ فيبدأ بتطهيرها، ويجلوها، ويجليها، ويزكيها؛ حتى ترتقي النفس وتطهر من النفس الأمّارة بالسوء إلى اللوامة، إلى المطمئنة. فالنفس قبل أن تزكو كانت تأمر بالشرّ وما هو سلبى؛ فإذا تنوّر القلب؛ فأشاع النور على النفس؛ فزكت؛ فستأمر القلب بالأوامر الصحيحة الإيجابية المطابقة لأوامر العقل والوحي، وعندئذ يزول هذا الصراع من القلب، ويزول القلق؛ لأن القلب لم يعد يتلقى من جهتين متضادتين؛ إذ انسجمت النفس مع العقل والوحي على خطّ واحد نحو مراد الله؛ فلا يأمرون القلب إلا بكل خير، ويسهل على القلب اتّخاذ قرار خير، وهنا تحصل الطمأنينة لكل من القلب والنفس.

فيكون القلب الذي استمد من الحق كما قال تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28]، وتكون النفس التي زكت كما وصفها سبحانه: (النفس المطمئنة)؛ بل ويحصل بذلك للمؤمن قوّة مضاعفة في اتّخاذ قرار الخير والحق؛ إذ أصبحت النفس نصيراً بعد أن كانت عدواً.

فإذا كان الأمر كذلك؛ يتحرّك الشيطان حركته ليوسوس ويلقي إلقاءاته في القلب، وطريقه إلى ذلك النفس، وعندئذ لن يجد هذه النفس؛ فيرتدّ ضعيفاً كليلاً، وكلّ ذلك يقوم على المجاهدات في كلّ وقت.

لماذا في رمضان؟

وإذ كان هذا مطلوباً في كلّ وقتٍ وحين؛ فإنّه في شهر رمضان تكون النتائج أعظم وأبهر؛ ذلك أن هذا الشهر خصّه الله بتصفيد الشياطين، وفتح الجنان وتنزل الملائكة والرحمات؛ فيكون المسلم في مواجهة عدو واحد، وهو النفس، وفي الأصل لا يجوز أن تفرّ أمام عدوين؛ فكيف إذا كان عدواً واحداً!

فكيف إذا أُيدت بهذه المؤيّدات الربّانية في رمضان، مع كونك في حال المراقبة وبناء الإرادة والصبر والضبط من خلال الصيام، مع كونك في حالة حركة المساجد وأنوار القرآن وتعظيم غذاء الروح؛ فيكون أدعى إلى تزكية النفس.

فإذا ما انقضى الشهر وقد زكت النفس؛ فما إن ينتهي الشهر ويتحرك الشيطان حركته؛ فلا يجد نصيراً من النفس.

ومن ثم كان رمضان بأجوائه النورانية أعظم أثراً في تحقيق التقوى.

وكل ذلك يتم من خلال آليات الصوم الخمس: الإرادة، والمراقبة، والصبر، والانضباط، واليسر.

فالإرادة أساس للانطلاق في أي عمل، ولا بد أن يُصدقها العمل ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ [الإسراء: 19]، فانظر إلى قوله: ﴿وَسَعَى﴾.

ولا شك أن الإرادة قد تقع تحت قيود؛ فمن هنا يأتي شهر الصوم بما معه من آليات لتكون هذه الإرادة في الاتجاه الصحيحة، ولنبنى الإرادة بناءً صحيحاً.

ثم تأتي المراقبة؛ إذ هي استحضار هذه العلاقة الخاصة بينك وبين الله؛ فتمتنع سراً عما هو مباح فضلاً عن الحرام لإرضائه؛ فتبني حقيقة العبودية.

وتأتي الآلية الثالثة: الصبر، وهو حبس النفس على مراد الله، والصوم يبني ذلك كله.

ثم الآلية الرابعة: الضبط والربط؛ إذ يقترن الصوم بالتزامات محددة، وأحكام محددة، ومنها بدء الصوم ونهايته؛ فلا فوضى في حركة المسلم.

وكل ذلك مع اليسر، ولذا نص القرآن على جوانب اليسر، ومنها أنه يحفزنا

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183]،
﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 184] فقوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ تحفيز، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
تحفيز آخر، وقوله: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ [البقرة: 184] تشجيع.

ويبين أحكاماً في رفع الحرج؛ ليقول في سياق الصيام: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]
وليدكرنا بالعون الإلهي ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۗ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 5 - 6].
وهذا من إعجاز الإسلام أنه يحقق أعظم النتائج بأيسر السبل.

القضية الرابعة: الثمرات

ومن ثم تكون ثمرات

1. الولاية:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس: 62 - 63]

الولاية تعني شيئاً عظيماً كثيراً

2. ثمرة أخرى اليقين كيف ولماذا؟

لأن أول سورة البقرة قالت:

﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾﴾ [البقرة: 2-4]

التقوى طريق اليقين

ومن ثم الصوم والعبادات طريق للتقوى

وكله طريق للشكر ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: 123]، أرقى مقام.

ماذا عن اليقين؟

اليقين وحقائقه:

ولعل أكثر ما نفتقده اليوم هذا اليقين

اليقين الذي هو من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد، ولقد قيل: الصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله. هذا اليقين إذا وجد هو الذي يعالج مصائبك في الحياة وابتلاءاتك وقلقك ومشكلاتك؛ ولذا قيل في الدعاء: **”وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تَهَوَّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا“** سنن الترمذي، حسن، هذا حديث حسن غريب. هذا اليقين يجعلك تعرف معنى السعادة؛ لأنك تعلم حقيقة حديث رسول الله ﷺ عن ابن عباس: **”يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظَكَ“** سنن الترمذي، صحيح.

ومن آثار اليقين:

- ◀ قلة الاهتمام بالغد، وهذا لا يعني عدم العمل والطموح.
- ◀ اليقين يجعلك متحققاً بمعنى الشهود والمراقبة التي ذكرها حديث الإحسان، قال تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوْهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتَسْأَلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾ [التكاثر: 5-8]
- ◀ ومن آثار اليقين ألا تسكن إلا إلى الله، وتثق بوعده الله، ويقل عندك طول الأمل، ويتحقق الزهد؛ فلا تكون متعلقاً بالدنيا.

واقع الإنسان على ضوء اليقين:

فنحن مثلاً حتى نبسط الأمر أكثر، نعتقد أن الرزق محدود، لكن كم نوقن بذلك؟ وبالتالي كم نتحرر من

القلق والهم؟

ونؤمن أن الله يضاعف أجر الصدقات، لكن كم نتصدق؟

نعلم أن الأجل محدود، كم نوقن بذلك؟ وبالتالي لا نقع في الجبن ولا الخوف.

نعلم أن النصر منوطٌ بالإيمان والإعداد ﴿... قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 249]، ولكن كم نوقن بذلك؟

إذن نحن مشكلتنا في عدم اليقين، ولو تحقق هذا اليقين لتحققت السعادة، عندما تأتي كل العبادات والأذكار فهي لبناء هذا اليقين، قال بعضهم: (إن أقلّ اليقين إذا وصل إلى القلب يملأ القلب نوراً، وينفي عنه كل ريب، ويمتلئ القلب به شكراً، والله تعظيماً وخشياً).

3. ومن أثاره هذا اليقين: الإمامة والهداية.

فاليقين مع الصبر يجعلنا على طريق الهداية والإمامة ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24]

وهو الذي يحققنا بالبصائر والرحمة والهداية ﴿هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: 20] ومن ذلك الرضى النفسي والصحة النفسية والصلة بالله

4. الثمرة الأخرى: الرسالة والرسالية، هل أنا صاحب رسالة؟

صاحب مشروع رائد يحتاج إلى فهم عميق وتكوين وعمل متواصل وثيق وكيف يكون رمضان كذلك

عندما يكون لك برنامج إيماني علمي قرآني مسجدي تعبدية إحساني اجتماعي تواصلية فأنت تبني أسس الرسالية.

تتواصل مع كل قضايا الأمة، ومنها التواصل بالدعاء، وتحسس المشكلات والآلام والمهمات والواجبات، مع المراقبة والصبر والضبط.

5. الثمرة الأخرى: الأمة الواحدة

كيف نكون في حركة واحدة؛ حركة مجتمعية، فلا نحصره كعبادة فردية بل صلوات في جماعة، وزيارات وإحسان للغير وتواصل ليكون ذلك على مستوى العالم في عبادة شاملة

6. ثمار آخر: الجهاد، والانتصار، والرباط..

ونحن نستذكر أهلنا المرابطين في القدس، وكما يأتي هذا الشهر رافعة معنوية عظيمة.

نستلهم من شهر رمضان شهر القرآن معاني الصبر، والإرادة، والمراقبة، والعطاء، والتضحية، والشهادة، والثبات، والثقة بالله، وأسباب النصر، كما نستلهم من السيرة العطرة أعظم الدروس والعبر، وأعظم المعاني الإيمانية والتربوية، ونستلهم الأمل والعمل والصبر والرضا والشكر والتضحيات والبطولات.

إذن ندرك لماذا يكون رمضان شهر الفتوحات والانتصارات

- ◀ لأنه شهر القرآن، والقرآن يربينا على كمال الإيمان، وكمال الثقة بالله، وكمال العطاء والتضحيات، وحب الشهادة، وفهم سنن الله في الكون والعمل وفقها.
- ◀ ولأنه شهر الأمة؛ ففيه معنى الوحدة والقوة.
- ◀ ولأنه شهر الصبر والإرادة، وهما أساس النصر.
- ◀ ولأنه شهر التقوى؛ ففيه تزكو النفوس، وتسمو وتصفو الأرواح، وتقرب من خالقها.
- ◀ وشهر الانضباط والمراقبة الذاتية لله سبحانه.
- ◀ فهو شهر الانتصار على النفس والشهوات والشیطان.
- ◀ وهذه كلها عوامل النصر.

كما أن شهر رمضان شهر الرحمة الإلهية، والتجلي الإلهي على عباده المؤمنين، وشهر الإكرام الإلهي لأمة محمد ﷺ، فليس غريباً إذن أن يكون شهر الانتصارات والفتوحات.

لذا كان فيه أول معركة فاصلة في الإسلام "بدر"، وأعظم فتح فاصل في الإسلام "فتح مكة"، وكان فيه "فتح الأندلس" (92 هـ)، و"فتح عمورية" (223 هـ) الذي كسر شوكة الروم، و"عين جالوت" (658 هـ) الذي كسر التتار عن بلاد المسلمين، وغيرها من الفتوحات والمعارك.

ولأن كنا نعيش أيضاً ظلال بدرٍ وفتح مكة، لا ننسى أن عدونا الصهيوني كان يتعمد أن يستهدف المسلمين في رمضان.

ففي عام (1967 / 5 رمضان) كانت مجزرة اللد على يد موشليان ليُستشهد 426 فلسطينياً، وكانت مجزرة الحرم الإبراهيمي في (15 / رمضان / 1994) ليرتقي تسعون شهيداً و270 جريحاً في صلاة الفجر، واليوم أيضاً تتعرض فلسطين إلى عدوانٍ شامل كما تتعرض غزة لعدوان شرس همجي صهيوني.

7. الثبات عندما تنزل القلوب.

لما كان الصوم يجعلك في حالة المراقبة مع الله الدائمة، وهذه الإرادة تعظم، وذاك الصبر يسمو؛ فلا شك أنه مهما كانت الزلازل؛ كان الرضا والتسليم والثبات، والشكر لله، والعمل بمقتضى مراده، واستنكار العبر، والأخذ بالأسباب.

وإذ كان الصوم أيضاً طريق النصر والجهد؛ فتمامه بالثبات في الزلازل، ومدرسة الصوم تعين على ذلك كله؛ إذ رأينا أن رمضان شهر النصر والجهد؛ إذ تنتصر النفس، ومن هنا نقتبس الثبات في زلازل القلوب، وقد حضرتنا الآيات حال الثبات بعطاء أخروي؛ الجنة، وعطاء دنيوي؛ النصر، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214]

8. ثمار أخرى:

القدرة على القيام بالواجبات الأخرى والفهم المتكامل الشامل للإسلام؛ إذ سبق الحديث عن الصوم: حديث عن القبلة، والصراع الفكري العقدي والهوية، سبقه حديث عن البر، وعن القصاص والعدل.

ثم أعقبه حديث عن المعاملات والاقتصاد.

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء: 29]، لماذا؟

ثم يأتي الحديث عن الجهاد، لماذا؟

لماذا يأتي بعد ذلك الحديث عن الحج؟

لماذا يأتي بعد ذلك بيان قضية الإنفاق والمعاملات المالية؟

لنلاحظ أن واسطة العقد في ذلك مدرسة الصوم؛ إذ كل ذلك يحتاج إلى الإرادة والصبر وال ضبط، والمراقبة.

9. ومن الثمرات: كسر العادات السلبية، وبناء العادات الإيجابية.

وسيساعد على ذلك البرنامج الذي ينبغي أن يُعده المسلم في رمضان.

القضية الخامسة: الواجبات

يمكن إجمال ذلك بقضيتين رئيسيتين:

الأولى: تصحيح المفاهيم، ومنها: مفهوم الحياة، ومنهج بناء الحياة، وإعطاء كل ذي حق حقه.

تضافرت العبادات لتحسن القيام بحق هذه المدرسة

أضرب مثلاً:

لو جاء مريض إلى طبيب فشخص المرض، لكنه أعطى دواءً فوق التركيز المطلوب أو أقل، أو اشترى دواءً فاسداً منتهي الصلاحية، أو أخطأ الصيدلي في صرف الدواء، أو كان ينبغي أن يُصرف مع الدواء دواءً موازٍ معادل، فإذا حصل خطأ في أي جانب من هذه الجوانب ارتكس المريض وانتكس.

أما إذا أخطأنا التشخيص فالكارثة أكبر.

هنا أنقل هذه الصورة إلى وضعك الإيماني والروحاني والفكري والقلبي، فتجد من يأخذ تركيزاً عالياً في الذكر، لكنه خاوي الفكر.

أو تركيزاً عالياً في النوافل، لكنه يفتقد المراقبة في قلبه لله أو الإرادة أو يقوم بأعمال عبادية وينسى فرائض أخرى، فربما ركز على نوافل الصلاة وأدائها لكن نسي أن الغيبة والنميمة حرام وأن نصرة الظلم جريمة لا تغتفر.

وأحياناً يغفل عن تشخيص مرض نفسه:

- هل هو مثلاً قاسي القلب؟
- هل هو عنده مرض الرياء؟
- هل هو عنده مرض الحسد؟
- هل عنده مرض سوء الظن؟
- هل عنده مرض العجب؟
- هل عنده بخل؟
- هل عنده أنانية؟

وبالتالي إذا لم يعرف مرض نفسه كيف سيعالجه، فلا تؤتي العباد ثمارها.

فننجح في رمضان عندما نصح هذه المفاهيم.

ثانياً: ننجح عندما نحدث التغيير الإيجابي الحقيقي في حياتنا، وكل إنسان له تغييره الذي يناسبه، مثلاً رمضان شهر الصبر والإرادة والإنضباط، ماذا سيحدث؟

الغضب، كيف نسيطر عليه؟

وصية رسول الله ﷺ لا تغضب (وصايا من جامع العلوم والحكم)

كيف نحل هذه المشكلة؟

قرار إيماني إرادي ”قررت ألا أغضب“، فكلما جاء ما يغضب تذكرت القرار، رمضان يبني فيك أساس نجاح القرار وهو مراقبة ذاتية يبني فيك الإرادة فيبني الصبر والانضباط.

القضية الثانية: البرنامج المتكامل في رمضان:

ويمكن أن يكون ذلك من خلال:

- 1) الاستيقاظ قبل الفجر، ولو بمقدار الوضوء وصلاة ركعتين لتحقيق التهجد.
- 2) شهود الفجر في جماعة.
- 3) وقت إيماني ما بين صلاة الفجر إلى الشروق.
- 4) عمل بإتقان تراقب الله فيه.
- 5) ضبط الجوارح خلال النهار، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، قال: ”الصَّيَّامُ جُنَّةٌ فَلَا يَرُفُثُ وَلَا يَجْهَلُ، وَإِنْ أَمْرٌ قَاتَلَهُ أَوْ شَاتَمَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي صَائِمٌ مَرَّتَيْنِ“ البخاري
- 6) لزوم الجماعات.
- 7) ورد قرآني تلتزمه.
- 8) حلقة علم تبحث عنها وترتبط بها.
- 9) التعرف إلى صالحين وتجالسهم.
- 10) شهود العشاء والقيام جماعة.
- 11) الروابط الاجتماعية.
- 12) عن ابن عباس، قال: ”كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ، وَكَانَ أَجْوَدَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيْلُ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ“ صحيح البخاري

ومن ثم فكل العبادات جاءت لتحقيق التقوى:

وبمقدار التزام حدود الله وتحققنا بأحكام الله وشرعه، دقيقتها وكبيرها؛ نحقق التقوى.

كما أن الأوامر والنواهي والأحكام جاءت لتحقيقنا بالتقوى.